الحق أحق أن يُتَّبع

د. سعد أبو الرضا

فكرت في عدم الرد على الأخ الأستاذ محمد بسام ملص في رده على الرد لكنني وجدته يتحدث عن الحق والعدل والحرص على أبناء الأمة وهدايتهم، وهو همٌّ ينوء به المخلصون، ويشغلهم دائماً، غير أني - وأرجو أن أكون مخطئاً - وجدت سبيله إلى ذلك غير مستقيم، برغم حرصي في الرد السابق على الموضوعية وعدم الادعاء، وانتهاج مسلك المهتمين بالعلم وقضاياه، ومع ذلك فسوف ألتزم المنهج نفسه، اللائق بالمسلمين والباحثين الذين تشغلهم المعرفة والحكمة، أينما وجدا، وهاهو ذا ردي على ماكتبه ثانياً على كتابي «النص الأدبي للأطفال» فيما يلي:

١- مايزال الأخ محمد ملص - هدانا الله وإياه - مصراً على تجاوز العدل والحق، وعدم الاعتراف بالفضل لأصحابه من الرواد كالأستاذ محمد أحمد برانق والأستاذ عبدالتواب يوسف.. وهما من الكتاب الرواد المتخصصين في أدب الأطفال، فيؤكد تجاوزاتهم، ويبرز ما رآهم قد قصروا فيه، متناسياً ومتغاضياً عما قدموه في هذا المجال وقت أن لم يكن بالساحة إلا القلائل ممن يستطيعون أن يسهموا في تربية أطفال المسلمين بالكلمة الجميلة المعبرة، وكانت أعمالهم الأدبية للأطفال قدوة لمن أراد أن يكتب في هذا المجال - وماتزال، ولذلك فأنا أدعوه إلى النقد البناء بذكر الجانبين الإيجابي والسلبي، والتوفيق والتقصير، والنجاح والفشل، وهذا من باب العدل وإقرار الحق والفضل لذويه بدلاً من الادعاء وتزكية النفس، بل الغريب حقاً أنه يدعوني إلى ما لم يلتزم هو به، وذلك عندما ذكر في الصفحة الثانية من رده الأخير، أنه يجب أن أذكر مالهذه المجموعات الأدبية للأطفال مالها وماعليها، وهو في الحقيقة لم يشغل نفسه إلا بإبراز مارآه عيباً فيها في نظره، وأخذ يضخمه، حتى ليظن القارئ خلوها من أى ميزة، علماً بأنني في هذا القسم الذي انتقده من كتابي كنت أرصد الظاهرة وأقدم أمثلة عليها، ولم أكن في مجال التحليل والنقد كما بينت في ردي السابق في العدد السابع عشر من مجلة الأدب الإسلامي.

ويورد قول مؤلفها - رحمه الله - عنها بأنها موجهة للأطفال، وعليه فإن ما أنكره الأخ الدكتور عليّ قد أجازه لنفسه، ولم يتنبه إلى الخطأ الذى وقع فيه. غفر الله لي وله.

وأقول بأن الكتب الأخرى التي تنتمي إلى المرحلة المتأخرة وما بعدها مثل كتابي الدكتور عبدالرحمن الباشا والأستاذ محمود سالم تندرج تحت مايسمى بكتب الأطفال وأدب الأطفال من باب عدم الإكثار من المصطلحات والتسميات نظراً لاختلاف المراحل العمرية.

٣- أشار الأخ الدكتور إلى خطأ منهجي في إقامة المسح وفحص العينات فيما يتصل بإجابات الأولاد الأربعة على أسئلة موجهة إليهم في الكتاب «مجلة الأدب الإسلامي عدد ١٧ ص٩١»، والكتاب لم يدع أن هذا مسح وفحص عينات، فالأمر غير هذا تماماً، لقد أعطيت ثلاثة كتب لأربعة أولاد ليجيبوا عن أسئلة محددة، ولو طُلب من مائة ولد ضمن المرحلة العمرية التي تتوجه لها الكتب لجاءت الإجابات متقاربة جداً، لأن المسألة تتعلق بنص يتضمن معلومات وأسئلة محددة عنها.

٤- ذكر الأخ الدكتور أن الكتاب يتضمن صفحات ومصادر ومراجع وكشافات لا حاجة للمسألة إليها «مجلة الأدب الإسلامي عدد ١٧ ص٩١»، ولابد أنه يدرك أهمية هذا في الدراسات التاريخية، وهذا لايعيب الكتاب، بل يقوي من قيمته العلمية.

أشكر الأخ الدكتور على ملحوظاته على الكتاب، وأسأل الله له التوفيق والعون على أداء الأمانة، وآخر دعوانا الحمد الله.

■ عبد التواب يوسف

٢ـ ثم إن هناك قضية مهمة لست أدري كيف غفل عنها الأخ الأستاذ محمد ملص وهو خريج معهد السينما بموسكو ـ فهناك فارق بين كتابة التاريخ، وتوظيف التاريخ توظيفاً قصصياً فنياً، فأنا لم أزعم أن ابن سينا فقيه، وإنما قلت «إن هذه الأعمال تتجاوز الجانب التاريخي للسيرة إلى الإعلاء من شأن الجانب القصصي وفنيته، حيث يتم توظيف الأحداث والمواقف في بنية فنية تقنع بالصفة المتحدث عنها من صفات الرسول ﷺ، كما تزكي من الإعجاب به كقدوة وصاحب رسالة، ذي سلوك مثالي فريد، وقد تتخذ هذه الأعمال الفنية من أحداث وشخصيات التاريخ الإسلامي ما يدعم هذه البنية الفنية، كتوظيف شخصية ابن سينا مثلاً وما يتمتع به من علم وفقه في تأكيد جوانب عظمة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولفظة «فقه» هنا تعني فيما تعنى الدلالة اللغوية وهي الفهم وسعة المعرفة، وليس الغرض من هذا الإشارة إلى هذه الشخصية أو الكشف عنها أو تزكيتها، وإنما الكشف عن شخصية الرسول ﷺ.

٣ ـ أما إعادة قراءتي لمسرحية «جحا والبخيل» للأستاذ أحمد سويلم، فقد أكد لي ما ذهبت إليه بشأنها، واختلاف القراءة وارد بين المتلقين، ولكن أن نلوي أعناق الكلمات، ونستنتج مالا يتصوره إنسان بناء على مقدمات غير صحيحة، فهذا أمر غريب حقاً، فبالإضافة إلى أن «نوادر جحا» مصدر من مصادر كتابة أدب الأطفال ومثلها في كل آداب الدنيا التي توظف الشخصيات التراثية ـ وهو مايريد أن يحرم أدبنا منه الأخ محمد ملص ـ بل أكثر من ذلك فهو يدعو الكتاب إلى أن يصبحوا نقلة لأى فكر دون أن يطوعوا هذا الفكر تطويعاً فنياً سوياً للقضايا الإسلامية، فجحا في مسرحية «جحا والبخيل» وهو يحمد الله بأن أعطاه الخلق الطيب ولذلك فهو يألف الناس وهم يألفونه، برغم فقره، بينما جاره غني بخيل حاقد ينفر الناس منه، يعتبر الأخ محمد ملص هذا من قبيل تزكية النفس وهو أمر منهي عنه... ولماذا لانحسن الظن ونرى ذلك من قبيل القدوة الصالحة في مجال القصص التربوي، والحث عليها، أما أن نصف هذا الموقف القصصي أنه من قبيل تزكية النفس المنهي عنه، فتلك هي المشادّة ـ ولا أقول التنطع ـ وغير ذلك مما نهى الرسول ﷺ ونفاه من هذا القبيل.

وكأني بالأخ الأستاذ محمد ملص لايفرق بين الفن والمباشرة فما أراد الأستاذ أحمد سويلم تحقيقه بطريقة فنية جذابة مؤثرة في تربية أطفال المسلمين بمسرحيته الشعرية، يريد الأخ الأستاذ محمد ملص تحقيقه بطريقة تقريرية مباشرة، ذلك أن كاتب هذه المسرحية قد عقد مقابلة فنية بين جحا الفقير المتواضع المخلص للمسلمين من جيرانه ولذلك يحبونه، وبين جاره الغني البخيل الحاقد الذي يتجسس على جيرانه، ولذلك ينفر منه الناس، والهدف من ذلك طبعاً تحبيب الأطفال في الخلق الطيب ورعاية الجار، وترك البخل.. وغير ذلك من القيم الإسلامية التي تؤكدها المسرحية وتريد تثبيتها في نفوس الأطفال، لكن الأخ الأستاذ محمد ملص يرى أن الكاتب يربط بين الغنى والشر، من ثم يستنتج بناء على هذه المقدمة الخاطئة فشل المسرحية وخروجها عن الخط الإسلامي، ويبين دون مبرر ـ لأن هذا أمر بدهي في الإسلام ـ [أن الفقر قد يكون ابتلاء، وعلى الفقير أن يعمل، ولايتواكل، ويطلب من الله الرزق، والغني يؤدي زكاة أمواله ويتصدق حتى لايكون المال دولة بين الأغنياء]، والمسرحية دون شك قد أوحت بذلك وأكثر منه فنياً، وهو مالم يدركه الأخ الأستاذ محمد ملص (خريج معهد السينما بموسكو).

٤ـ أ ـ وفي ثالثاً مايزال الأخ محمد ملص يؤكد أن روايتي جورجي زيدان «عذراء قريش»، و«فتح الأندلس» هما من أدب الأطفال كما جاء في رده الثاني أيضاً، وكل من له صلة بأدب الرواية يعلم أنهما للكبار، أي من تجاوزوا مرحلة الطفولة، أما أن يقول: أطلب من الأخ الدكتور أن يسمي لي عملاً يتناول هذه الجوانب التاريخية «يقصد بالنسبة لتاريخ عثمان بن عفان رضي الله عنه» في أدب الأطفال قبل هذه الأعمال بالاتجاه ذاته والتناول عينه.. فالأمر غاية في البساطة، لأن كل المتصلين بأدبنا الحديث ـ خاصة المتخصصين ـ يعلمون أن أدب الطفل حديث النشأة في أدبنا، كما أن الأعمال التي استشهد بها لاتنتمي لأدب الطفل بأي مقياس من مقاييس ذلك الأدب، كما أننا ننبه طلابنا في الجامعة أن يكونوا على وعي بأمور دينهم، ويقرءوا بحرص روايات جورجي زيدان وأمثاله، لما فيها من غمز ولمز وتجاوز بينما هو يريد أن يجعلها للأطفال... (أي أطفال.. لست أدري!).

ب ـ وإذا كانت المراجع الأربعة الانجليزية التي يزهو باعتماده عليها متخصصة، فهي متخصصة في موضوعها، وليس في أدب الأطفال، والذي جعلني أشير إلى ذلك، هو أنه أخذ عليّ اعتمادي على بعض المراجع

الأجنبية وهي ليست في أدب الأطفال، لكنني وأنا أعتمد على هذه المراجع كنت أقارن بين مسرحيات الكبار ومسرحيات الأطفال، ليتضح الفارق بينهما، ومن ثم فاعتمادي عليها في موضعه تماماً، أما هو فلا، ماعدا كتاب وينفرد وارد.

وإذا كان يزعم ويزهو أنه من عام ١٩٧٢م في هذا المجال فقد كان اهتمامه الأساسي في ذلك الوقت السينما ومافيها، وليس الكتابة في أدب الأطفال، حيث كان مايزل طالباً بمعهد السينما بموسكو.

أما أنّ من استشهدت بهم أنا وأعمالهم في نظره تميل إلى التنظير أكثر، وأنها لم تواكب التطوير الذي شهدته نشاطات أدب الطفل في الآونة الأخيرة، فأولا أدبنا العربي الحديث حديث عهد بالكتابة في أدب الطفل، ولذلك فجانب التنظير بالنسبة لنا لايقل أهمية عن جانب التطبيق، ثم إن من استشهدت أنا بهم لهم باع طويل في مجال الكتابة الأدبية فنوناً ونقداً، خاصة في الاهتمام بالتوجيه الإسلامي للأدب وفنونه، ومن بينها أدب الطفل، بل منهم من قضى كل عمره في توظيف الفن من أجل الدعوة، وليسوا حديثي عهد بهذا المنزع.. فنجيب الكيلاني مثلاً قد استطاع أن يحقق الريادة في هذا المجال دون ادعاء.

أما عن الاتجاهات الحديثة في مسرح الطفل فقد ورد ذكر كثير منها في القسم الخاص بحديثي عن مسرحية الأطفال في كتابي «النص الأدبي للأطفال» حتى سنة ١٩٩٠م، كما أن كتاب «الوسائل التعليمية» الذي استشهدت أنا به للدكتور مصطفى بدران، والدكتور ابراهيم مطاوع، والدكتور محمد عطية لما أشار هو إليه وأكثر، من هذه الاتجاهات الحديثة.

والاستفادة من كتاب وينفريد وارد «مسرح الأطفال» أمر عادي فهو كغيره من المصادر التي يمكن الاستفادة منها في هذا المجال، ولم يمنع أحد ذلك، لكن اعتراضي على مايراه الأخ محمد ملص من وجوب الاستفادة من هذا الكتاب بالذات، دون غيره من المصادر في هذا المجال، وذلك يعني أن المصادر الأخرى أقل من هذا الكتاب في نظره، مما يمكن أن يمس قيمتها في نظر من يقرأ كلامه، إن لم يثبت من ذلك باطلاعه على غير هذا المصدر ككتاب ماري آن بولين «الاستخدامات المبدعة لأدب الأطفال» الذى أراه أكثر أهمية.

وأنا لم أذكر أن هناك تناقضاً بين قول شيخ الإسلام ابن تيمية عن الأخذ من كلام حكماء فارس والروم، وبين الاستفادة من كتاب وارد، وإنما التناقض لديه هو، وفي طريقة تناوله للقضية، لأنه يعترض على توظيف صالح نوادر جحا، وما يمكن أن نستفيده من كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة بما لايتعارض مع ديننا الإسلامي، ويمكن أن يفيد أطفالنا فنياً وتربوياً وفكرياً بعد توظيفه، ومما هو ليس من الحكمة التي نهى عنها ابن تيمية، لكنه هو الذي استشهد بقول شيخ الإسلام ابن تيمية، فهو يضع مقولة الشيخ في غير موضعها، مع أنه يعلم أن الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها أخذها، ولن أكرر ماقلته في ردي الأول بالعدد السابع عشر من مجلة «الأدب الإسلامي»، فهناك تفصيل لذلك، ولكنه يحاول أن يدعي مالم أقله، وردي ورده مكتوبان في العددين (١٧، والعدد الذي بين يدي القارئ) من مجلة «الأدب الإسلامي»، ثم يزعم أني في حديثي عن كتيبه [عثمان بن عفان في أدب الأطفال] خارج عن موضوع ردي الأول على ماكتبه هو في العدد السابع عشر من مجلة الأدب الإسلامي، ألم يستشهد هو بهذا الكتيب فيما كتبه على أنه نموذج من نماذج الكتابة في أدب الأطفال والموجهة للأطفال؟ وقد بينت أنا في ردي السابق ولن أكرر ما قلت، وإنما أرجو القارئ أن يعود إلى هذا العدد (١٧) من مجلة الأدب الإسلامي وسيكتشف التناقض الكبير والادعاء الشديد ومدى تزكية النفس المنهي عنه، بالإضافة إلى أنه ليس في الكتيب أى ملمح من ملامح أدب الأطفال، بل إن المراجع التي اعتمد عليها كمادة لأدب الطفل الذي جعله عنواناً لكتابه، ليست موجهة للأطفال، وإنما هي موجهة للكبار، والكتاب نفسه موجه إلى من يكتبون للأطفال وهذا ماذكره هو نفسه في رده.

وأحيل القارئ إلى مجموعة من التجاوزات التى استغرقته في رده:

١ـ يقول الأخ الأستاذ محمد ملص: «والحقيقة أن مفهوم أدب الأطفال إنما يرتبط بكل مايكتب للأطفال نثراً أو شعراً وبكافة الأشكال الأدبية المعروفة، وعليه فإن الكتب الموجهة للأطفال التي تناولت موضوع الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه تدخل فيما يسمى بأدب الأطفال، وكانت الدراسة تتعرض للأخطاء التاريخية الواردة فيها، وكان هذا هو غرضها».

وأنا أقول له: ياأخي العزيز ماكتبته